مكانة الأدب عند السيد هبة الدين الشهرستاني (مجلة العلم أنموذجا)

المدرس الدكتور
حسين لفته حافظ
جامعة الكوفة /مركز دراسات الكوفة

مكانة الأدب عند السيد هبة الدين الشهرستاني

(مجلة العلم أنموذجا):

المدرس الدكتور
حسين لفته حافظ
جامعة الكوفة /مركز دراسات الكوفة

المقدمة:

اهتم السيد هبة الدين الشهرستاني كثيراً بقضية الأدب في أعماله ونتاجاته الفكرية وخاصة (مجلة العلم) [١] التي أشرف على إصدارها، والتي ستكون محور البحث، ويأتي هذا الاهتمام بالأدب إحساسا منه بتأثيره القوي على سلوك المسلم، وأنَّ الأدب باستطاعته ان يوجه الإنسان الوجهة الحسنة خصوصا

إذا كان موضوعه يندرج ضمن الأدب الملتزم بقضايا الإسلام وتعاليمه الحنيفة، فضلا عن قضايا الأمة المصيرية،خاصة وان السيد نشا في بيئة تعرف الأدب حق معرفته، فقد درس علوم العربية مبكراً في النجف الاشرف وكربلاء المقدسة، وقد شغف بحب العلم والمعرفة[٢] .

ومن هنا جاء موضوع البحث الذي يتمثل في دراسة جهود السيد هبة الدين في مجال الأدب وإيضاح منزلة الأدب عنده من خلال التركيز على إبداعه المتجسد في إصداره لمجلة العلم [٣]،التي صدر العدد الأول منها في 29 آذار 1910م، وذلك بتتبع المباحث الخاصة بالأدب والتي ورد ذكرها في هذه المجلة، ودراستها وتحليلها وفق منهج فني تحليلي، وبعد تفحص المجلة وقراءتها وجدنا أنَّ عدد المباحث الخاصة بالأدب وصل إلى خمسة عشر مبحثاً، تناولت مختلف القضايا الأدبية، ونذكر منها مشكلة الألفاظ الأدبية، وعالم الأدب والعلم، وتقدير قيمة الأدب، والشعر والحكمة، فضلا عن هذا كان السيد هبة الدين الشهرستاني يلجأ الى الذوق الرفيع في اختيار النصوص البلاغية، التي ورد ذكرها في مجلة العلم، ومن تلك النصوص ما أورده من كلام لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) في مجال المعاني، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك هو إشراك القارئ وتعريفه ببلاغة مثل هذا الكلام، بغية التأثير فيه .

ولعل السيد هبة الدين الشهرستاني كان يستلهم التراث الأدبي ويحاول ان يوظفه في خدمة القضايا التي تهم المجتمع، فقد أشار في مقالة أوردها في مجلة العلم الى اهتمام النبي الأكرم (صَلى الله عليه وآله وسَلَمَ) الى قضية الشعر والحكمة استناد الى قوله(صلى الله عليه وآله وسلم) (إنَّ من الشِّعرِ لحكمة وإنَّ من البيان لسحراً) [٤]، فهو يرى أنَّ الأدب باستطاعته تغيير الذائقة عند الفرد نحو الأحسن،

خاصة وان تراث الأمة مليء بصور البطولة والفداء والتفاني في سبيل مبادئ الإسلام الحنيف .

ومن الجدير بالذكر ان اهتمام العالم الفقيه هبة الدين الشهرستاني تعدى المقالات الأدبية الى وضع كتاب خاص يهتم بعلم العروض بعنوان (رواشح الفيوض في إصلاح فن العروض) وكتابه الآخر (ما هو نهج البلاغة).

ولعل من ابرز النتائج التي توصلنا اليها في هذا البحث هو اعتقاد السيد هبة الدين الشهرستاني بان الأدب يجب ان تكون له رسالة هادفة، وهي دعوة غير مباشرة الى السير بطريق الأدب الملتزم، فضلاً عن هذا شخص البحث الموسوعية التي امتاز بها السيد هبة الدين الشهرستاني وتنوع مصادر معرفته، كل ذلك ألقى بظلاله على طبيعة ما يكتب في مجلة العلم، لهذا تنوعت المقالات الأدبية، وتعددت موضوعاتها، وستتكفل الدراسة مناقشة أبرز القضايا المتعلقة بالأدب التي ورد الحديث عنها في مجلة العلم، وفق أربعة مباحث أساسية يندرج تحتها بعض فروع الأدب وكما يلي :

المبحث الأول

مسؤولية الكاتب

جاء حديث الشهرستاني عن هذا الموضوع تحت عنوان (لزوم الإصلاح الأدبي) وهي مقالة كتبها السيد في مجلة العلم وناقش فيها قضية المسؤولي ة الفردية والجماعية التي ينبغي على الكاتب ان يتبناها، وأن يشهر قلمه من اجلها، خاصة اذا انتشر الجهل والخرافات والبدع بين أوساط المجتمع ولذا نجده يقول: "ان النزوع الى هدم صروح الأوهام ومحاربة الخرافات والبدع من أهم مهمات الرسل والأنبياء ومن اوجب التكاليف على كل ذي علم وقدرة في كل مذهب وشريعة عالماً كان او أميراً كاتباً او فقيهاً شاعراً او حكيماً واعظاً او خطيباً" (٥).

يتضح من هذا النص المنزلة الرفيعة التي يتمتع بها الكاتب، الذي يريده على صفتين في آن واحد (فقيهاً وشاعراً) او ناثرا فقد ورد ذكره بين طبقة العلماء والأمراء والفقهاء والحكماء، ولا عجب من ذلك فتأثير الشاعر قوى في المجتمع وهو وسيلة مهمة من وسائل التغيير والنهوض بواقع الحال ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعداه الى ان السيد اخذ يتمثل بأبيات من الشعر، تحمل مضموناً تربوياً وأخلاقياً وذلك في قوله :

ما عُذر مَنْ تَرَكَ الإصْلاح مُقتَدراً ... عَلَيهِ وَهوَ الى الإسْلام يَنتَحلُ بِه

يَرى الخُرافات حَولَ الدِّين مُحدَقة ... وَيَمنعهُ مِن مَحوِها الكَسَلُ (٦)

أي أن السيد هبة الدين يرى أن هناك صلة بين الأدب والحياة والمجتمع وان هذه الصلة يجب أن لا تنقطع، وعلى الأديب أن ينظر فيما حوله، وان يحدد موقفه بجلاء ووضوح، ليعرف أين يضع قدمه وفي أي جهة يسير، لان الكلمة أمانة

ومسؤولية بل هي أعظم منّة امتن الله بها على الإنسان "قال تعالى:" الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)"[٧].

إذا لابد للأدب الذي مادته الكلمة من ان يكون - ككل ما خلق الله- ذا هدف، وهو ما ينسجم ورؤية السيد هبة الدين الشهرستاني، لذلك على الأدب خدمة الحياة، وذلك بمعالجة مشكلاتها، او محاولة تجميلها، او تقديم تفسير لها، أو الكشف عن أسرارها وإيضاح الغرض منها، وقد جسد هذا في قوله:

"اذا تقاعدنا عن الإصلاح، فلا تجدن من الدين أثراً بعد قرن " [٨]

فبيان الحق والباطل في الحياة مهمة من مهمات الأدب، وهو بذلك يعين الإنسان على العيش فيها، ويكون له هاديا في طريقها البعيد، ومن الباحثين المحدثين من تنبه الى هذه المسالة في قوله:"ان كل أديب ملتزم هو أديب حرّ شريف، وإن كل أديب ملتزم، هو أديب مسيّس، مستبعد، مبيع أو مشترى، وشتان ما بينهما" [٩]. ولعل اهتمام السيد هبة الدين الشهرستاني بالأدب الهادف الموجه هو الذي دفعه إلى أن يورد قصيدة طويلة تعود للشاعر الكبير محمد رضا الشبيبي مطلعها :

العلم والجهل إثراء وإقـــــــلال وأمتع الثروتين (العلم) لا المال

مالي أرى الناس بالإعراض قد فتنوا والافتتان بحب الشيء قـــتال [١٠]

المفصح العلم لا صوت ولا زجـــل والكاشف العلم لا زجر ولا فال [١١]

إلى أن يقول:

قد هذب الأدب العالي شمائله وصدقت فيه قول الناس أفعال [١٢]

ومن الجدير بالذكر أن الدعوة إلى طلب العلم شاعت في ذلك العصر ونادى بها كثير من الشعراء منهم جميل صدقي الزهاوي في قوله :

العِلم ثروة أمَّة وَيسارُ وَالجهل حرمان لها وَبوارُ [١٣]

ومن الشعراء حافظ إبراهيم وله في الحث على طلب العلم :

العِلمُ في البَأساءِ مُزنَةُ رَحمَةٍ وَالجَهلُ في النَعماءِ سَوطَ عَذابِ [١٤]

ومن خلال متابعة اختيار السيد هبة الدين للنصوص الشعرية لاحظت أن أكثر هذه النصوص كان يسير باتجاه الأدب الموجه الملتزم، الذي يدعو إلى وحدة الصف ونبذ الخلافات ومحاربة الفقر والجهل ونشر الفضيلة وما إلى ذلك ومن الباحثين المحدثين من يرى أن جوهر الدين الإسلامي يدعو إلى التأمل وإطالة التفكير والنظر في الكون وظواهر الوجود وعدم الاكتفاء بأداء الطقوس، بل معاودة النظر في علاقات الإنسان بخالقه من جهة وبأخيه الإنسان من جهة ثانية، وعلاقاته بهذا الوجود من جهة ثالثة، أدركنا تماما قيمة الأجواء الدينية وأهميتها بالنسبة للفنان الأصيل، وما تتيحه من فرص ممتازة للتعبير عن تأملاته وانفعالاته [١٥]، ومن التعليقات التي أوردها السيد هبة الدين على مثل تلك النصوص قوله :

"أجل لا يخفى على كل ذي ذوق سليم أن الأعمال لا تتأتى لأحد من الناس ما لم يكن مقبلاً عليها متوجهاً إليها محتملا لكل شيء من الأهوال متقلبا معها في سائر الأحوال التي تعرض له في أثناء سعيه وراء النتيجة المقصودة من تلك الأعمال" (١٦) .

فالشهرستاني يدعو الى أن يجعل من الأدب نشاطاً جاداً فعالاً، ذا تأثير في مسار الحياة، لأن مثل هذا النوع من الأدب يتناول الحقائق من حيث وجودها المستقل، وليس هدفه الأول نشرها وتعريف القراء بها، بل هو يتناولها من حيثُ تكيفها لحياة هذا العامل أو الفلاح، وصياغتها لشخصيته الإنسانية، فالإنسان المسلم هو موضع اهتمام السيد هبة الدين الشهرستاني .

المبحث الثاني

سُبل النهوض بالواقع الأدبي

تحدث الشهرستاني عن هذة المسالة المهمة من خلال المقالات الواردة في مجلة العلم تحت عنوان (الجائزة الأدبية) فقد افرد لها بضع مقالات، والمعروف ان الجائزة الأدبية تقليد قديم اعتاد الخليفة او الوالي او أي مسؤول في الدولة، تقديم نوع من أنواع الجوائز المادية او غيرها من الجوائز الى الشاعر الذي يبدع في مجال اختصاصه وهو الشعر، ويبدو ان السيد هبة الدين الشهرستاني وجد في هذا النوع من العلم فوائد كثيرة منها تشجيع الأدباء على القول وإنشاء أشعار تخدم القضية او الفكرة التي يدعو اليها .

لقد اتخذ السيد هبة الدين الشهرستاني طريقة الحث والتشجيع على القول الشعري من خلال عرضه لنماذج من الشعر، ومن ذلك الشعر أبيات تنسب الى الإمام زين العابدين بن على بن الحسين(ع) عليهما السلام :

يا رُبَّ جَوهَرِ عِلمٍ لَو أبوحُ بِهِ ... لِقيلَ لي أنتَ مِمَّن يَعبدُ الوَثَنا
وَلَاستَحَلَّ رِجالٌ مُسلِمونَ دَمي ... يَرَونَ أَقبَحَ ما يَأتونَهُ حَسَنا (١٧)

نلاحظ أن ذوق العالم الفقيه الشهرستاني يتجه نحو الشعر الذي يحمل مضموناً أخلاقياً وهدفاً تربوياً، يتناسب وتوجهات الشهرستاني الاصلاحيّه لأنه عالم صاحب مبدأ، نذر عمره لتحقيق هذا المبدأ، إلا أن الذوق الأدبي في حقيقة الأمر لا يتعلق بالشكل الفني فحسب، بل به وبالمضمون معاً، اذ هما مرتبطان بل ملتحمان بحيث لا يمكن الفصل بينهما، اللهم إلا على المستوى النظري فقط، أما في الواقع فالفصل غير ممكن، فالشعر اذا يهدف الى توصيل شيء ما لقارئه أو مستمعه، لكن بطريقة فنية (١٨).

والأبيات المنسوبة للإمام (عليه السلام) على الرغم من المعنى الفلسفي الذي غلب عليها، الا انها تحمل مضموناً طبع بطابع جمالي، جاءها من الوزن والقافية، فقد استعمل اللغة هنا استعمالاً مغايراً للمألوف من خلال الجرس الموسيقي الذي تطرب له الأُذُن البشرية .

ومن الجدير بالذكر ان السيد هبة الدين راح ينقل ردود الأدباء على هذين البيتين، ومحاولة محاكاتهما نحو قول بعضهم :

يَا رُبَّ جَوهَر علمٍ لو أبوحُ به ... للنّاسِ ضَاعَ وَلمْ تَعْرف لَهُ ثَمنَا
ورُبَّ مَكتوب سرٍ أن جَهرت بِه ... لَقِيل لِي أنتَ مِمن يَعبِد الوَثَـنا
وَلا ستَحَلَّ رِجَال المُسلِمين دَمِي ... الحَرامَ واشْتَركو ا في سَفْكِه عَلنا
ولا يَرون جَمِيعاً قُبْح ذَلك بَل ... يَرون أقْبَح ما يَأتُونه حُسْـــــنا [١٩]

نلاحظ هنا الوظيفة التعبيرية الناتجة من التتبع الأدبي للخلجات النفسية والدفقات الشعورية الباطنية، وهذا هو ميدان العاطفة الأدبية، لأن اللغة تعني بالحياة الخارجية للإنسان، لذلك كان تشجيع هبة الدين الشهرستاني ووضع الجوائز لكي يبصر الأديب بأن يتعرف بدقة على الطاقات التعبيرية النفسية للألفاظ العاطفية، لتساعده هذه المعرفة على التوظيف الفني الصحيح الذي نلاحظه هنا ينصب على الجانب الأخلاقي والتربوي لتعاليم الدين الإسلامي، وفي هذا الصدد ينقل السيد هبة الدين كثيراً من النصوص الشعرية التي تحمل طابع الحكمة والموعظة والحث على رفع الهمم وتلبية الدعوة الإسلامية في رفع الظلم وطلب العلم والتفاخر بالإسلام والشكوى من عاديات الزمن، إلا أننا لا نعدم ان نجد نصوصاً في المجال الوجداني، ومن تلك النصوص قصيدة الشاعر عبد العزيز ألجواهري تحمل عنوان(بعض المشيب شباب) [٢٠] ومطلعها :

غُصْن الشَّباب ذَبلت بأ لاّ تُورق ... فَلقد نَما للشَيب غَرس مُونــقُ
فارقت منك سواد ليل مُسدف ... وَالفت بَدرا كاملا لا يُمحــقُ
حييت منه بِيَمين سَعد طَالِع ... وَفَقدت مِنك غُرابَ بَين ينــعقُ
نَفَض الظَّلامُ عَلَيك فَاصِل بَرْده ... وَبِوَجهه انْبَسطَ الصَّباحُ المشرقُ[٢١]

فالشاعر هنا يحاول ان يقلب الصورة المستكرهة للشيب ويخرج على المألوف وذلك باستعمال أسلوب حسن التعليل، ورسم صور فنية لعملية استبدال الشباب المتمثل بسواد الشعر بالشيب المتمثل ببياض شعر الرأس، وهذه الطريقة تبعث في النفس الدهشة فضلا عن كونها تصدم المتلقي القارئ للنص، ليدلل على براعة الشاعر وتمكنه، والحديث عن الشيب والشباب في التراث الشعري قديم، وقد حظي التراث بعناية الشعراء والدارسين، فتتبعوه في الشعر العراقي الحديث ووقفوا عند دلالته في الشعر - مضمونا - وفي التجربة الشعرية - أداة - فرأى الدكتور عز الدين إسماعيل ان الشاعر العربي، تعامل مع التراث الإنساني والعربي تعامل إدراك واستيعاب وتفهم لمعانيه الإنسانية والتاريخية [٢٢].

وربما تكون أحاديث الشهرستاني دعوة الى أن تكون صلة الأديب بمشكلات الشعب شديدة حتى يشاركهم الشعور والإحساس بالمعاناة حتى يكون اقدر على تلمس العلل وحل المشكلات، لأن الأديب يمكن أن يوجه الشعب بإنتاجه نحو تطور سريع، وتبدل فكري شامل، وهو ما ذهب إليه الدكتور يوسف عز الدين في ان مهمة الأديب العربي اليوم قاصرة على نواح محدودة، وأساليب متميزة ، وأنماط خاصة، في البيان والبلاغة، وإجادة الأسلوب، وجزالة الألفاظ، واستخراج المعاني، لرسم صورة من الصور يرضى بها قسماً خاصاً من الأدباء او أرباب السلطان، إنما اهم واجباته العمل على تحقيق هذه الصورة التي رسمها، لكي يحقق للشعب امانيه، ويساير ركب التطور الحضاري الحديث ويسير على سنن التمدن. [٢٣] ومن الأساليب التي اتبعها السيد هبة الدين في تطوير وتنمية الذائقة الفنية عند الجيل الناشيء، اختيار نماذج أدبية افرد لها باباً في مجلته اسماه باب في الأدبيات [٢٤]، أورد فيه مختارات من الشعر تتناول غرضاً وجدانياً يتعلق بهموم المجتمع، وتقع تحت عنوان (الدمع) ومطلعها:

مال الشؤون نزفتهن جروحا ... نضحت دموعا بل نضحن قـروحا
افكلما تغلي الصبابة مرجلا ... تتصبب الاجفان منه رشـــــيحا
ما هذه العبرات الا زفرة ... بردت فعادت مدمعا مســــــفوحا
سقطت من الاجفان تفحص في ... لثرى حمرا فخلت سوادهن جريحا
الدمع عاطفة يجيء بها الأسى ... لتراوح الأشجان او لـــــــــتريحا [٢٥]

فضلا عن هذا ذكر السيد نماذج أخرى في مجلته وكلها من الأدب الرفيع المؤثر [٢٦]،مما يؤكد الهدف من وراءها .

المبحث الثالث

الإسلام والشعر

لا جرم في ان الحديث عن هذه القضية ليس بالجديد، فقد كثر فيها الكلام وطال حولها الجدل، خاصة علاقة الإسلام بالشعر في صدر الإسلام التي استنفدت كثيرا من جهود الباحثين والدارسين قديماً وحديثاً، والسيد هبة الدين الشهرستاني من العلماء الذين أشاروا الى هذه القضية في مجلة العلم وفي مواضع متفرقة، شعوراً منه بأهمية هذه القضية الفكرية والأدبية في آن واحد .

وقد أشار السيد هبة الدين الى هذه المسالة في افتتاحه لبعض مقالاته المتعلقة بمسائل الشعر، فهو يورد حديث النبي الأكرم (صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّم) : " إنَّ مِنَ الشِّعْرِ لحِكْمَةً" [٢٧] .

وهي إشارة واضحة من السيد الى قبول الأدب الهادف الذي يحمل مضامين إسلامية تدعو الى الخير ورد هذا في قوله :

"وذكرنا في قوانين المجلة قبول ما يناسب أبحاثها نظماً او نثراً" [٢٨] .

فقد حذر هبة الدين من الغزليات والهزليات التي تفسد الأخلاق والنفوس أكثر مما تصلحها [٢٩].

ويبدو ان المقصود هو الشعر المكشوف القريب من الابتذال والسوقية الذي لا يحمل معنى يتناسب او يتماشى مع سياسة مجلة العلم ومنهجها، ويقودنا هذا الحديث الى مشكلة التوصيل بين الشاعر والجمهور وقد تحدث عنها الدكتور عناد غزوان كثيرا [٣٠]، إذْ أن مشكلة التوصيل أو علاقة الشاعر بالجمهور، ظاهرة نقدية تصاحب كل حركة شعرية في أدب أي أمة من الأمم، وهي ظاهرة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالفن الشعري - وهو عنصر الإبداع - والتذوق، وهو عنصر الاستجابة والرؤية القيمية للشعر وهي العنصر الفكري.

لهذا وجدنا أن السيد كان يختار ويقدم القصائد ذات الطابع الثوري الداعي الى روح الإسلام ورفع الهمة عند الناس من خلال الفخر بالحكمة والرأي السديد لأصحاب الحزم والدراية، ومن صور هذا النوع من الشعر قصيدة أوردها السيد وقد عقب عليها بأنها قصيدة غراء ومطلعها:

قُمْ فَجَدد مِن حَزْمِك الاجدادا وأدعُ بِالعَزمِ واقتعده جَوادا
وتَقَلد مِن صَائب الفِكر سَيفاً واتخِذ رأيكَ السَّديدَ نَجادا [٣١]

والقصيدة مَشحونة بِعاطفة العَزم والنَخوة وإثارة الهِمم، وَهي دَعوة لطلب المفاخر والمكارم الأصيلة التَي سبق وان تغنى بها الشعراء، لان الشاعر يذكر أبناء هذه الأمة بما يمتلكونه من ارث عميق، فالشاعر يعلم ان الشعر عملية إنسانية يحاول الشاعر من خلالها بوعيه وقدرته الإبداعية نقل أحاسيسه التي عاش فيها وانفعل معها وتأثر بها الى جمهوره كي يشاركه إحساسه وانفعاله وتأثره، لذلك يقول الشاعر في القصيدة :

هَيئي لِلــعُلومِ يَا أمَّة الشَّرق نُهوضــــاً وللرُقِيّ اتـــــــحَادا
واسْتَفيقي مِن رَقدة الجَبَل وألقِي العَجز جَنبا واسْتبدلِيه اجتِهادا [٣٢]

لا يخفى على قارئ القصيدة، طريقة الشاعر في استنهاض الهمم، وطلب المعالي، ونعت الكسالى وتصويرهم بالنيام فرقدتهم تشبه رقدة الجبل الأصم، وهي طريقة شاعت في ذلك الوقت وأشار اليها عدد من الشعراء وربما يعود السبب الى وقوع دول العرب تحت سيطرة الدول المحتلة ومنها العراق، لذلك كان هدف المصلحين والشعراء هو توعية الناس وإثارة العزيمة، عن طريق الشعر خاصة، إلا أَن السهولة التي طغت على أغلب شعر تلك المرحلة أوقع الشعراء في مشكلة المباشرة، وهي مشكلة أشار إليها النقاد القدامى ومنهم المرزباني في كتابه الموشح وكذلك نبه اليها الأصفهاني [٣٣].

وتماشياً مع منهجه دأب السيد هبة الدين الشهرستاني على اختيار الأدب الرفيع وأفرد لهذا الغرض باباً اسماه باب جوامع الكلم أورد فيه روائع أقوال أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يعلم ان أسلوب له مزايا، فهو أسلوب ذو نفس عالٍ

ينساب بسرعة، ويتلون مع حال المخاطَب، و((عليه مسحة، وطلاوة من الكلام الإلهي، وفيه عبقة، ونفحة من الكلام النبوي)) [3]، فقد كان الإمام الطالب الأول في مدرسة القرآن، وتحت رعاية معلمها النبي المصطفى محمد (صَلَّى الله عليه وآله وسَلَّمَ)؛ لذا أجاد الإمام في محاكاة تلك المدرسة وذلك المعلم [٣٤] نحو قوله الذي يتوارد جمال المعاني فيه:

"العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى، والصبر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام ... " [٣٥].

صحيح أن السيد لم يصرح مباشرة عن سبب اختياره لهذه النصوص من الأدب البليغ إلا أن القارئ يستطيع ان يتلمس مواطن الجمال فيها بما اشتملت عليه من إيجاز، وتلميح الى كثافة المعنى وقلة اللفظ، فأنت تستطيع ان تستنبط كثيراً من المعاني فيها على الرغم من قلة ألفاظها، فضلا عن رشاقة هذه الألفاظ وخفتها وسلاستها فهي تشبه الماء العذب، ومِنْ ثَمَّ نلاحظ أن جملها تمتاز بخصيصة التوازن التركيبي، أما من جانب معانيها فنلاحظ التأثر الكبير بالمعاني القرآنية لأن الإمام علي صاحب رسالة وحامل مبدأ يهمه أن يعي الشعب رسالته وأن يفهم مبادئه ولذلك كان يهتم بتوجيه الناس عن طريق الخطب والرَّسائل والوصايا والتعاليم، وكان يغذّي الولاة والعاملين في جهاز حكمه بنصائحه التربوية [٣٦] ليقوموا بدورهم القيادي على خير وجه، مما وفر للأمة ثروة ضخمة من توجيهات الإمام علي عليه السلام وتعليماته .

وهو ما يؤكد عليه السيد في اختياراته لأنه صاحب رسالة مفادها أن الهدف من خلق الإنسان هو أن يمارس مهمة عبادية تتمثل في الالتزام بالمبادئ التي رسمها الله سبحانه وتعالى .

المبحث الرابع

أهمية اللغة في القول الشعري

افرد السيد هبة الدين الشهرستاني ثلاثة عناوين تتناول أهمية اللغة في النشاط الأدبي او أي نشاط يقصد منه التواصل بين أفراد الأمة خاصة وان السيد أراد لمجلته ان تكون مجلة عربية تنتشر في أقطار الدول العربية لذا يجب أن تكون لغة التخاطب والتواصل مفهومة للكل من هنا جاءت العناوين التي أوردها ومنها عنوان (نحن والألفاظ المشكلة) الذي تحدث فيه السيد عن الألفاظ الصعبة الواردة في المجلة والتي تحتاج الى تغيير قد يكون عن طريق الرجوع الى كتب اللغة لغرض إكمال الفائدة .

لاشك ان اللغة توظف في القصيدة على نحو متميز، لأن الكلمات فيها تتخذ "وزناً أثقل من الوزن الذي تحمله الكلمات نفسها عندما نصادفها في الكلام العادي، أو في صفحة جريدة، أو حتى في صفحة الكتابة النثرية، أننا نلمس تكثيفا لمعانيها" [٣٧].

ومن هنا فإن علاقة " تجربة الشاعر بلغته أوثق وأهم من علاقة تجربة القاص أو مؤلف المسرحية في العصر الحديث" (٣٨).

ومن الجدير بالذكر أن السيد حاول ان يجد تعليلاً لهذه الظاهرة فذكر مجموعة من الأسباب، منها البيئة اللغوية لكل مدينة تفرض على أبنائها نوعاً من اللهجات الدارجة الاستعمال وتختلف هذه اللهجات من مدينة إلى أخرى، ويستشهد على ذلك بكثرة بعض الكلمات الواردة في القطر العراقي مثلاً او السوري دون غيره فيصعب فهمه على الأباعد ويضيف السيد في قوله:

"ونحن قد لا نعرف ما يستصعبه القطر الفارسي أو الهندي أو غيرهما فيفوتنا تفسيره وربما تتلو الكلمة بتفسيرها بين قوسين" (٣٩).

فضلاً عن هذا يذكر السيد هبة الدين الشهرستاني أسباباً أخرى تتمثل في قوله:

"وقد تشتمل المقالة على كلمات اصطلاحية او مستحدثة سرت الى العربية من الإفرنجية او غيرها كما سرت من الفارسية إلى العربية بسبب اختلاط الأمم أو استيثاق عرى التجارة والتدارس بينهم فمثل هذه الألفاظ لا يجدها الباحث في القواميس القديمة وربما وجدها في القواميس اللغوية الحديثة ولاسيما كتاب (محيط المحيط)" (٤٠) .

فقد وضع العلامة هبة الدين الشهرستاني يده في هذا النص على مجموعة أسباب تؤدي الى غموض النص أمام المتلقي، وذكر أن استعمال المصطلحات الخاصة بعلم معين ولم تشتهر بين الناس بسبب خاصية استعمالها، او لكونها مصطلحات وافدة من اللغات الأخرى نتيجة الاختلاط والاحتكاك بالأمم الأخرى فهي نتيجة الأثر والتأثير وهذه خاصية تمتاز بها اللغة العربية، وهي قدرتها على تكييف المصطلحات من اللغات الأخرى، إلا أن العلامة هبة الدين لاحظ أن مثل تلك المصطلحات تسبب نوعاً من الغموض عند عامة المتلقين بسبب حاجتها الى معجم خاص يكشف عن معناها، إذاً في حديث السيد هبة الدين إشارة الى التطور الحاصل في لغتنا العربية، وتسمى مثل هذه الظاهرة بالاستقراض، فاللغة تأخذ من غيرها من اللغات، مفردات او اصطلاحات تتعلق بالعلوم الجديدة الوافدة اليها، بفضل التواصل التجاري والثقافي .

ولم يقتصر اهتمام العلامة هبة الدين عند هذا الحد إنما تعداه الى أن أفرد مبحثاً خاصاً في مجلة (العلم) تحدث فيه عن الفروق اللغوية الدقيقة بين حروف اللغة العربية بدءاً بحرف الألف وانتهاء بالياء، ومما ورد فيه قوله :

"الألف في كلام العرب يأتي على اثنين وعشرين وجهاً، ألف الأصل في الأفعال مثل : أتى يأتي، وألف الوصل مثل ألف انْصُرْ، وألف الفصل مثل ألف كتبوا، وألف القطع مثل ألف أَكْرَمَ..."(٤١).

ولعل حديث السيد هبة الدين عن الحروف اللغوية يظهر اهتمامه الشديد باللغة ودراسة هذه اللغة لكي يتلمس مواطن الجمال فيها، وفق مواصفات وسنن هذه

اللغة مع النظر الى التطور الدلالي الذي يطرأ عليها، لذا نراه في مقالته هذه يشير إلى مثل هذه الفروق وذلك في قوله :

"السين على خمسة أوجه سين الأصل وسين الطلب وسين الزيادة وسين البدل عن الصاد وسين سوف فسين الأصل مثل سجد وسين الزيادة مثل استعظم وسين البدل عن الصاد مثل صراط وسين الطلب مثل استغفروا الله وسين سوف مثل ستضرب معناه سوف تضرب" (٤٢).

إذاً السيد يريد أن يشير الى أن اللغة أداة التواصل، وأن هذه اللغة يجب أن تكون مفهومة وهذا الفهم يتأتى ان نبدأ بالجزئيات او بأصغر وحدة وهو الحرف، ودلالات هذا الحرف لأن التصور الإسلامي للأدب يركز على ضرورة لغة العصر لأجل عملية التوصيل ،وهو من هذا المنطلق يرفض كل لغة لا تحقق عملية التوصيل .

وأخيراً يختم الشهرستاني حديثه عن اللغة بمبحث يتحدث عن حدود الحرية في الاستعمال اللغوي (٤٣)، يبدأ كلامه عن معنى لفظة الحرية، وهل أن لفظ الحر في اللغة ضد لفظ العبد في العرف واللغة، ويحاول مناقشة الثعالبي (ت 429هـ) العالم اللغوي المشهور(٤٤)، قائلا :

"وقد توهم الثعالبي (ان صح ما حكي عنه) حيث اخذ (الحر) كناية عمن لا دين له زاعماً أن الحرية هي التخلي عن قيد كل عبودية حقه أم باطلة؟"(٤٥).

الا ان السيد هبة الدين يناقش هذا الرأي قائلاً :

"ولكن الصحيح المستفاد من الفحص في ظواهر اللغة والكتاب والسنة والعرف إنما هو التخلي عن قيد العبودية الباطلة : ومن هنا ترى العرب يسمون الكريم حراً وكذا الجليل وكل من أطلق نفسه من قيد حب المال أو الجاه أو سائر الأوهام التي أسرت عقول الناس وملكت قلوبهم فأضحت تعبدها دون الحق والحقيقة" (٤٦).

ويمكن القول ان السيد هبة الدين ينطلق دائما من مهمة الأدب في تحديد طبيعة الكتابة الأدبية لأنه يعرف جيدا ان الأدب لغة جمالية، موظفة لأداء مهمة وهو يرى ان هذه المهمة العبادية، هي توصيل المبادئ الى الآخرين

الخاتمة :

1- حاول السيد هبة الدين الشهرستاني التنبيه الى الحياة العامة التي كانت تزخر بضروب متنوعة من العلل الاجتماعية والسياسية والأدبية وهي حياة كان يرجو لها ان تزدهر من خلال التأكيد على الدور الكبير الذي يمكن ان يؤديه الأدب في إحداث تغيير في المجتمع .

2- ظهر من خلال تتبع المقالات الأدبية التي نشرها السيد هبة الدين في مجلة العلم تأثره بما يحصل في البلاد من ظروف صعبة، وقد كان الدافع الإسلامي حاضراً

بمقوماته الثقافية والتاريخية واستلهام كلام العظماء من رجال الأمة، نحو إنقاذ الأمة من مظاهر الجهل ورفع مستواها العلمي .

3- أظهر البحث رغبة السيد هبة الدين الشهرستاني في التعبير عن الطابع الديني العام للمجتمع، وكان في المقدمة عقيدة الأمة ومثلها والتعبير عن روحها وما تعتز به من مقدمات هذه العقيدة، وأوضح أن أغلب الأدب الذي دعا إليه كان أدبا موجهاً تجاه تحقيق الغايات السامية .

4- تبين من خلال البحث نظرة السيد الثاقبة الى منزلة اللغة في الأدب وكيف أن دورها كان مرهوناً بطريقة استعمالها بحيث تكون أداة توصيل وإفهام لا أداة تعمية وغموض كما يحصل في بعض النتاجات الأدبية التي تتجاوز الحدود المعقولة لتصبح مجرد ألغاز لا يمكن معرفة معناها الا بعد كد الخاطر وإرهاق الذهن وذلك مما لا يرتضيه السيد هبة الدين الحسيني .وأخيراً الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على محمد الأمين وآل بيته الطيبين الطاهرين

هوامش البحث

١ - قام الدكتور علاء الرهيمي بوضع دراسة رائدة عن هذه المجلة بعنوان (العلم النجفية من المجلات العراقية في مرحلة الريادة والتأسيس) وقد نشر هذا البحث في مقدمة مجلة العلم، ينظر الصفحة 11 وما بعدها .

٢ - ظ: معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء :319

٣ - تجاوزت هذه المجلة في سعة انتشارها الحدود الإقليمية الى العديد من المدن والبلاد العربية والإسلامية، وهو بلا شك يدل على أهمية هبة الدين الحسيني صاحب المجلة وهمته من جهة واستجابة واسعة من قبل القراء، فقد كان لها الفضل في بث الأفكار السامية ونشر دعوة العلم بين طبقات أفراد الأمة .

٤ - ورد هذا الحديث في صحيح البخاري ج 1،و البيان والتبيين : 1\75 ودلائل الإعجاز : 36، والعمدة :1\15.

٥ - مجلة العلم مج2 : 22 .

٦ - مجلة العلم مج2:23.

٧ - الرحمن :1- 4 .

٨ - مجلة العلم مج 2 :22 .

٩ - الالتزام في الأدب : 123، وينظر الحرية والأدب : 22 وما بعدها .

١٠ - مجلة العلم مج 2 : 121 .

١١ - مجلة العلم، مج 2: 121.

١٢ - مجلة العلم، مج 2: 121.. وينظر : تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي في القرنين التاسع عشر والعشرين .

١٣ - ينظر الديوان : 31، لقد كان الزهاوي من طلائع نهضة الأدب العربي في العصر الحديث .

١٤ - ينظر الديوان : 52، لقب حافظ إبراهيم بشاعر الوطنية وشاعر النيل ،و امتاز شعره بالإبداع في الصياغة والمعنى .

١٥ - ينظر :تطور الشعر العربي الحديث في العراق :33.

١٦ - م . ن : 125 .
١٧ - مجلة العلم ،مج 2 : 235 . وينظر الكشكول ،وينظر ديوان الحلاج فقد ورد فيه ذكر هذه الأبيات منسوبة إليه، وكان مطلعها :
إنّي لَأَكتُم مِن عِلمي جَواهِرَهُ كي لا يَرى العِلمُ ذي جَهلٍ فَيفتَتِنا
١٨ - ظ : الأدب وعلاقته بالدين :22 .
١٩ - مجلة العلم ،مج 2 : 281 .
٢٠ - ظ : مجلة العلم ،مج2 : 283 .
٢١ - مجلة العلم ،مج2 : 284 .
٢٢ - ينظر : الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية) : 20- 21، والشعر العراقي الحديث في معايير النقد الأكاديمي العربي :230 وما بعدها .
٢٣ - ينظر في الأدب العربي الحديث :7 وما بعدها .
٢٤ - ينظر مجلة العلم : مج2، 431.
٢٥ - مجلة العلم ،مج2، 431.
٢٦ - ينظر مجلة العلم :مج2 ،378ومابعدها .
27- مجلة العلم ،مج1: 209.
٢٨ - مجلة العلم، مج 1 : 209 .
٢٩ - مجلة العلم، مج 1 : 209 .
٣٠ - ينظر : مستقبل الشعر وقضايا نقدية 36ومابعدها .
٣١ - مجلة العلم، مج 1 : 209 .
٣٢ - مجلة العلم، مج1 : 212 .
٣٣ - ينظر الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: 398، والأغاني :18\79.
الطراز : 79، وينظر أعلام الهداية : 2/ 226 -227 .
٣٤ - ينظر التقييد في نهج البلاغة : 7.
٣٥ - مجلة العلم، مج2 : 240 .و كلام الإمام هذا مأخوذ من وصيته للحسن والحسين عليهما السلام ومطلعه (أوصيكما بتقوى الله تعالى) ينظر نهج البلاغة : 287، 312، 331، 349، 356، 385، 389، 391 والإعجاز والإيجاز : 25، والمستطرف في كل فن مستظرف :1\87.
٣٦ - ينظر : رؤى الحياة في نهج البلاغة :11، وما بعدها .
٣٧ - ينظر :الشعر والتجربة :21.
٣٨ - النقد الأدبي الحديث : 409.
٣٩ - مجلة العلم، مج 2 : 80 .
٤٠ - مجلة العلم، مج 2 : 81 .
٤١ - مجلة العلم، مج 2 : 128 .
٤٢ - مجلة العلم، مج2 : 130 .
٤٣ - مجلة العلم، مج 2 : 186 .
٤٤ - هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ابو منصور الثعالبي، من ائمة اللغة والأدب من أهل نيسابور، اشتغل بالأدب والتاريخ فنبغ وصنف الكتب الكثيرة الممتعة في الأدب واللغة والتاريخ والسياسة، من كتبه يتيمة الدهر) في تراجم شعراء عصره، وفقه اللغة، وسحر البلاغة، والإعجاز والإيجاز وغيرها من المؤلفات القيمة .
٤٥ - مجلة العلم، مج2 :186. ورد هذا الرأي في كتابه (التمثيل والمحاضرة) : 15.
٤٦ - مجلة العلم، مج 2 :186 .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الأدب وعلاقته بالدين والأخلاق، الدكتور ابراهيم عوض، ط1، 2008م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (ت356هـ) تحقيق : الدكتور يوسف البقاعي، وغريد الشيخ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط1، 2000م
- البيان والتبيين، الجاحظ(255هـ)، تح:عبد السلام محمد هارون ،مطبعة المدني، مصر، ط7 ،1998م.
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق، الدكتور علي عباس علوان ،منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1975م.
- تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي في القرنين التاسع عشر والعشرين، الدكتور داود سلوم، مطبعة المعارف، بغداد، 1959م.
- التقييد في نهج البلاغة، عباس إسماعيل، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة المستنصرية .2006م.
- التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، تحقيق : عبد الفتاح الحلو، عيسى الحلبي، القاهرة،1961م.
- الحرية والأدب، عباس الجراري، الرباط، مايو 1971م .
- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط 1، 2001 م .
- ديوان الحلاج (ت309هـ)، أعده وقدم له : عبده وازن ،دار الجيل، بيروت، ط1، 1998م.
- رؤى الحياة في نهج البلاغة ،حسن الصفار،ط4، 1977م
- الشعر العراقي الحديث(1945- 1980) في معايير النقد الأكاديمي العربي ،الدكتور عباس ثابت حمود،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،2010م.
- الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، الدكتور عز الدين اسماعيل، دار العودة ،بيروت، ط3، 1972م.
- الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، 1963م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأخبار، يحيى بن حمزة العلوي (ت 749ه) تحقيق : جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت،1982م
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ابن رشيق لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ت(454هـ)، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت – لبنان، ط4، 1972م
- في الأدب العربي الحديث (بحوث ومقالات نقدية) الدكتور يوسف عز الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،1973م.
- مجلة العلم، منشأها وصاحب الامتياز : السيد هبة الدين الشهرستاني، دار التعارف للمطبوعات، 2009م.
- المستطرف في كل فن مستظرف،الابشيهي(850هـ)، مكتبة الجمهورية العربية،مصر، (د.ت).

- مستقبل الشعر وقضايا نقدية، الدكتور عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1994م.
- الموشح(مآخذ العلماء علي الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر)، لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت 384هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، 1965م.
- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت–لبنان، 1973م
- نهج البلاغة،مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام،تح: د. صبحي الصالح، مطبعة وفا، إيران ـ قم، ط3 ،1429هـ.